

مجالس الخلفاء العباسيين ودورها في التعليم**أ.م.د. زينب كامل كريم****مركز احياء التراث / جامعة بغداد****المستخلص**

يعد موضوع مجالس الخلفاء العلمية من الموضوعات المهمة على صعيد التاريخ الاسلامي لما له من أثر في تسليط الضوء على جانب مهم من حياة الخلفاء العباسيين وهو الجانب الايجابي المشرق من سيرتهم التي كثيرا ما نجد أنها وصفت بالترف والبذخ الذي قد نصفه بالخيالي ، وعلى ما في ذلك من صحة أو مبالغة فإننا لا بد أن نؤكد في بحثنا هذا أن الخلفاء كانوا أيضا على درجة كبيرة من العلم بالقرآن والسنة وأخبار العرب واللغة والادب وكانوا هم أيضا من رواة الحديث النبوي والشعر العربي ، وأخبارهم مع العلماء كثير في بطون كتب التاريخ والسير ، ونظرا لطول العصر العباسي آليت أن يكون البحث هنا عن العصر العباسي الاول تحديدا ، وذلك لأمر لطول فترة العصر العباسي كما أسلفت ولأن العصر العباسي الثاني كانت ملامح التعليم فيه أكثر وضوحا ودور الخلفاء أوسع بكثير وهي معروفة من حيث اهتمام الخلفاء في بناء المدارس والتي اشتهرت كثيرا في بغداد وبقية الامصار الاسلامية مثل المدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية وغيرها .

كما أن العلوم أخذت تتوضح وتبرز مثل علوم الطب والرياضيات والكيمياء وعلم الحيل ويقصد به علم الفيزياء وغيرها من العلوم ، إلا أن العصر العباسي الاول كان يمثل اللبنة الاولى للتطور والنهضة العلمية والمراحل الاولى مهم جدا اظهارها والتركيز عليها لدراستها وجمع الاشارات التي تبين لنا الدور الذي لعبه الخلفاء بقصد أو بغير قصد في دفع عجلة العلم وجعل من بغداد عاصمة العلم والعلماء ومنار الحضارة في وقت كان العالم كله منغمس في جهل مطبق .

الكلمات المفتاحية : التعليم ، المجالس ، الخلفاء العباسيين**Councils of the Abbasid Caliphs and their role in education****Dr. Zeinab Kamel Karim****Heritage Revival Center / University of Baghdad****dr.zainab@rashc.uobaghdad.edu.iq**



Abstract:

The topic of the councils of the caliphs is one of the important topics in the field of Islamic history, because it has an impact in highlighting an important aspect of the life of the Abbasid caliphs, which is the positive and bright side of their biography, which we often find described as luxury and opulence that we describe as imaginary, and on the validity of that Or exaggeration, we must confirm in our research that the caliphs were also highlyhighly aware of the Qur'an and Sunnah and the news of the Arabs, language and literature and they were also narrators of the hadith of the Prophet and Arabic poetry, and their news with scholars is abundant in the stomachs of history and biographies, and given the length of the Abbasid era, I hope that Be searching Here about specifically the first Abbasid era, and that is for matters for the length of the Abbasid era as I mentioned beforeand because the second Abbasid era was more prominent in education and the role of the caliphs is much broader and is known in terms of the interest of the caliphs in building schools, which is well known in Baghdad and the rest of the Islamic provinces such as the regular school and the school Al-Mustansiriya and others. Also, the sciences began to emerge and emerge as the sciences of medicine, mathematics, chemistry and tricks, which means physics and other sciences, except that the first Abbasid era represented the first building blocks of development, the scientific renaissance and the early stages are very important to show and focus on for their study and collect signals that show us the role that the caliphs played With intent or unintentionally pushing the wheel of knowledge and making Baghdad the capital of science and scholars and a beacon of civilization at a time when the whole world was immersed in an applied ignorance.

Key words: education, councils, Abbasid caliphs

المقدمة :

شهد العصر العباسي نهوضا وتقدما في شتى العلوم والفنون ، ومن المؤكد أن المجالس وخصوصا مجالس الخلفاء نجد فيها مادة علمية دسمة وهي تمثل المرحلة التي سبقت بناء المدارس العلمية والتي بنيت برغبة وأمر من الخلفاء أيضا .
وقد استحق خلفاء العصور العباسية أن يدرسوا بصفتهم رجال علم ودعاة للتطور المعرفي والابداع الثقافي ، ولذا وجدت من المهم جدا أن نتوقف على دور الخلفاء العباسيين



في النهضة العلمية التي شهدتها الحضارة الاسلامية ووجدت أن دورهم كبناء ورعاة للعلم ومراكزه وطلبته وعلمائه لايمكننا رصد مالم نقف على اللبانات الأولى التي أذكت الحركة العلمية ألا وهي المجالس التي كانت تعقد في حضور الخلفاء وبطلب منهم .

ومجالس الخلفاء تعكس لنا محبة الخلفاء للعلماء وسبب تقريب العلماء لهم ينبع من تشجيع الاسلام للعلم وطلبه وهذا نلمسه جليا من أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، قال معاذ بن جبل في التعليم والتعلم مرفوعا (تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح والبحث عنه جهاد وتعليمه من لا يعلمه صدقة وبذله لأهله قرينة وهو الأنيس في الوحدة والصاحب في الخلوة والدليل على الدين والمصبر على السراء والضراء والوزير عند الاخلاء والقريب عند الغرباء ومنار سبيل الجنة يرفع الله به أقواما فيجعلهم في الخير قادة سادة هداة يقتدي به أدلة في الخير تقتص آثارهم وترمق أفعالهم وترغب الملائكة في خلتهم وبأجنتها تمسحهم ..) (١)

مثل هذه الاحاديث وغيرها من أقوال في طلب العلم فريضة على كل مسلم واطلبوا العلم ولو بالعين أختلف الناس في العلم هل هو فرض على كل مسلم ، وما هو العلم الواجب والمحجب تعلمه فتشعبت الآراء ونهضت الفرق فقال المتكلمون هو علم الكلام وقال الفقهاء هو علم الفقه وقال المفسرون والمحدثون هو علم الكتاب والسنة وفصلوا تعباً لذلك في ماهية العلم الواجب تعلمه (٢) فقسمها ابو حامد الغزالي الى العلوم الشرعية والعلوم غير الشرعية وفصل الحديث فيها ، هذه البدايات التي جعلت من العلم واجب وتمسك الرعيل الأول بكل أقوال الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأفعاله وجهتهم نحو الاهتمام بطلب العلم

والخلفاء كانوا على معرفة دقيقة لهذه الاهمية التي جسدتها الاحاديث النبوية الشريفة ولدور العلماء في نشر العلم والحض على التعلم فكان العلماء البطانة والحاشية للخلفاء يستشيرونهم ويأخذون بما ينصحون ، ومن هنا يظهر اجلال الخلفاء للعلماء وتقديرهم الواضح الذي كان سببا للنبوغ العلمي والتألق والابداع هو حفظهم لهيبة العلماء ومكانتهم التي كانت تتمثل بالحضوة والمقام العاليين كما سيتبين لنا في ثنايا البحث وقد لانستغرب بعد ذلك من توافد طلاب العلم على بغداد التي كانت قبلة العلماء وقتذاك، كما نلمس من الخلفاء الاعجاب والثناء العالي عليهم وقد عبروا عن ذلك بأساليب متعددة ، في الاطراء عليهم والعطاء لهم تقديرا لعلمهم



فأحاط أهل العلوم الطبيعية والفلسفية والنجوم الخلفاء العباسيين واطلعوا على تلك العلوم وتأثروا بها وتاقت أنفسهم اليها واشتغلوا بها ونبغ عدد من الخلفاء والامراء العباسيين بها^(٣)

وهذا أمر طبيعي لان الخلفاء كانوا شغوفين بالعلم يبذخون الاموال الطائلة على العلماء ، قال نفطويه : أعطى الرشيد مرة سفيان بن عيينة مائة ألف ، وأجاز إسحاق الموصلي مرة بمائتي ألف وأجاز مروان بن أبي حفصة مرة على قصيدة خمسة آلاف دينار وخلعة وفرسا من مواكبه وعشرة من رقيق الروم^(٤) ولم يقتصر الامر على ذلك فالخلفاء أنفسهم أدبوا على أيدي علماء صغارا وجالسوا العلماء كبارا وكانت بطانتهم من العلماء حين استخلفوا للحكم يقول السيوطي في ترجمة المأمون (وأدبه اليزيدي وجمع الفقهاء من الآفاق وبرع في الفقه والعربية وأيام الناس ولما كبرعني بالفلسفة وعلوم الأوائل ومهر فيها)^(٥) ولم يكن بارعا وحسب وانما كان يروي ويؤخذ عنه ايضا فيقول ايضا(روى عنه ولده الفضل ويحيى بن أكثم وجعفر بن أبي عثمان الطيالسي آخرون) ومن هذه الاخبار الكثير والتي جمعت بين العلماء والخلفاء .

ولم يشمل الاهتمام علوم اللغة والحديث والادب وانما نلمس الاهتمام الواسع بعلوم الفلك والنجوم وهو علم قد لانجد له تطورا لولا اهتمام الخلفاء به وهو اهتمام نستطيع أن نعهه متقدما نوعا ما

إذن تضم المجالس أخبارا ونوادرا ومادة علمية استوقفتنا في هذا البحث للتعريف على الدور الذي لعبته هذه المجالس في تنمية العلم ونشر التعليم في ربوع الدولة الاسلامية. حتى كانت المجالس سببا لاندفاع الخلفاء نحو بناء المدارس حينما لم يعد المجلس والمسجد كافيا لنهل العلم واتساع رقعته في البلاد الاسلامية ،

ولعل السبب في ذلك يرجع الى مكانة العلم والتعليم في نظر الاسلام وما اولاه الرسول (ص) من عناية فائقة بهما فلا قوام للاسلام الا بالعلم والتعليم ولا ثبات له و لا دوام الا باعداد الجو وتهئية المناخ الملائم له ، وذلك بتمجيد العلم وتوجيه الناس نحوه اذ هو الصخرة المتينة التي تعاد عليه صروح المدنية والعمران فلا غرابة اذا ما جعل الاسلام للعلم والتعليم اهمية كبيرة في ظله .

المجلس في اللغة والاصطلاح:

المجلس في اللغة : الجيم واللام والسين أصل واحد وهو الارتفاع في الشيء يقال جلس الرجل جلوسا وذلك يكون عن نوم واضطجاع وإذا كان قائما كانت الحال التي تخالفها القعود^(٦) والجلوس عند ابن منظور القعود ، من جلس يجلس جلوسا فهو جالس من قوم جلوس وجلاس وأجلسه غيره ، والجلسة الهيئة التي يجلس عليها بالكسر على ما يطرد وهو حسن الجلسة والمجلس بفتح اللام المصدر والمجلس موضع الجلوس^(٧) مما تقدم نتوصل الى أن الجلوس إنما هو لمن كان مضطجعا والقعود لمن كان قائما باعتباره أن الجالس من كان يقصد الارتفاع أي مكانا مرتفعا وإنما هذا يتصور في المضطجع والقاعد بخلافه فيناسب القائم^(٨)

أما المجلس فيما تعارف عليه: هو المكان الذي يضم مجموعة من الناس كأن يكونوا من العلماء أو الشعراء أو الادباء ويتخذ هذا المجلس طابع أهله ومكانتهم من حيث البساطة والفخامة فمجالس العلماء بسيطة على خلاف مجالس الخلفاء حيث يسود فيها الترف والطعام والشراب وتكون لها أصولها ورسومها وتختلف شكلا ومضمونا عن مجالس العامة^(٩) والمجالس ليست من نتاج الحضارة الاسلامية في العصر العباسي وإنما هي قديمة قدم الانسان وتميز العرب بمنتدياتهم التي يتجمعون فيها ويتجالسون ليديروا شؤونهم يتتادمو وقد ورد لفظ جلس في قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا) (المجادلة / ١١)

ففي عصر صدر الاسلام والعصر الراشدي اتسمت المجالس بالبساطة والتواضع وعدم التنوع فكانت تعقد في المساجد لأمر معينه تخص نشر الاسلام وذكر الله تفسير أي الذكر الحكيم والاحاديث والقصص والحكايات والعضة^(١٠) وللمجالس شروط وآداب ، منها ،

١. التسليم عند الجلوس وحين المغادرة وقد حث الرسول (ص) على وجوب الالتزام بآداب الجلوس قال (صلى الله عليه وسلم) (إذا انتهى أحدكم الى مجلس فليسلم فإن بدا له أن يجلس فليجلس ثم إذا قام فليسلم فليست الأولى بأحق من الآخرة)^(١١) ويقول ايضا (ولا يؤم الرجل الرجل في سلطانه ولا يقعد في بيته على تكرمته إلا بأذنه)



٢. تعميرها ، قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) (ما من قوم جلسوا مجلسا لم يذكروا الله فيه إلا رآوه حسرة يوم القيامة) وأفضل المجالس مجالس العلماء وقد أكدت النصوص الدينية على أهمية مجالسة العلماء روي عن لقمان الحكيم لابنه يعظه (يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فإن الله عزوجل يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض بوابل السماء) (١٢)

٣. اختيار المجلس الصالح (١٣)

٤. اذا رجع الى مجلسه فهو أحق به قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) (إذا قام أحدكم من مجلسه ثم رجع اليه فهو أحق به) (١٤)

٥. حفظ أسرار المجلس وقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) مشهور في ذلك حيث قال (المجالس بالأمانة)

٦. أن يجلس حيث ينتهي به المجلس (لا يقيم أحدهم أخاه ثم يجلس في مجلسه)
٧. النفسح في المجالس قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) (لا يقيم أحدهم رجلا من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا وتفسحوا) (١٥) وعن ابي هريرة ايضا عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال (لا يوسع في المجالس الا لثلاثة : لذي علم ولذي سن لسنه او لذي سلطان لسلطانه) (١٦)

٨. النهي عن الاتكاء على راحة اليد اليسرى خلف الظهر قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) في حديث الشريد بن سويد وأنا جالس قال لاتقعد قعدة المغضوب عليهم) (١٧)

٩. عدم التفريق بين الإثنين إذ لا يحل لرجل ان يفرق بين اثنين إلا بإذنهما (١٨)
ومن هنا نجد من المهم مراعاة أدب الحديث كحسن الاستماع والانصات وعدم المقاطعة أو الاستئثار بالحديث أو رفع الصوت والانشغال عن الجلوس ، وأن أفضل المجالس ما انطوت على ذكر الله تعالى والصالحين من الانبياء والاصياء قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) ما جلس قوم يذكرون الله الا وحفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده) (١٩)

أنواع المجالس العباسية :

اتسعت الدولة وكثرت أقاليمها وتزايدت مواردها المالية انسحب هذا على المجتمع وبالذات على مجالس الخلفاء فكان الخليفة يختار المتميزين ممن كان يعاصره من الادباء



والشعراء والمؤرخين والفقهاء ليجالسوه في أوقات معينة والهدف من هذه المجالس سماع أخبار العرب ونوادرهم وبطولاتهم والاطلاع على الاسرار العربية وآدابها فكان الخلفاء ذا اقبال على الشعر والشعراء والادب والادباء واغداقهم الاموال الطائلة عليهم وتتافس الشعراء في مدح الخلفاء للتقرب من مصادر المال والسلطان^(٢٠)

ومجالس الخلفاء كانت رديفة لحفلات العلم التي يعقدها العلماء والفقهاء والمحدثون والوعاظ في المساجد والمدارس كالمدرسة المستنصرية والمدرسة النظامية وغيرها^(٢١)

أما مجالس الخلفاء في العصر العباسي فقد تطورت في شكلها ومراسيم الدخول اليها وكيفية المثل أمام الخليفة وآداب المجالسة وكيف يسأل الخليفة وكيف يجيب الجليس وهل يجلس الخليفة مع جلسائه أم يحتجب عنهم وحين يصرف الخليفة جلساءه ماذا يقول وما هي علامة الصرف لكل خليفة ، ولم تأت هذه القواعد فجأة بل كان لها أصولها المستقاة ممن سبقهم من الامويين وغيرهم وزادوا عليها، يقول الثعالبي (لايتخذ الملك الأعوان إلا أعيان ولا الأخلاء إلا أجلاء والندماء إلا كرماء ويجب على من يجالس ملكا ملازمة الأدب في جميع أحواله كما أوجب أن يكون المجالس عالما بالحلال والحرام عارفا بأشعار العرب وأخبارها)^(٢٢) فاهتم الخلفاء باستقدام من عرف برجاحة الرأي والعقل من الرواة والعلماء والادباء يبين المكانة التي اتخذتها هذه المجالس لم تكن مقتصرة على بغداد فقط بل انتشرت في معظم الحواضر العربية والاسلامية في الشرق والمغرب وكانت قصور الخلفاء هي المكان الوحيد لانعقادها وبعدها امتدت الى قصور الوزراء وبيوت العلماء^(٢٣)

ولذا فالخلفاء العباسيين دور ومكانة كبيرة في تطور العلم والتعليم ويعتبر العصر العباسي الاول أو ماينعت بالعصر الذهبي لهذه الخلافة وما تميزت به هذه المرحلة من عناصر القوة العظمى بالاضافة الى سيطرة الخلفاء العباسيين حينها على مقاليد الحكم والسلطة قالدولة التي ملكوها على هذه الصورة يجدر بها أن تزدهر بالعلم والعلماء^(٢٤) فكان أبو جعفر المنصور كما وصفه الجاحظ (مقدما في علم الكلام ومكثرا من كتاب الاثار ولكلامه كتاب يدور بين يدي الوراقين)^(٢٥) وعن محمد بن سلام الجمحي قال قيل للمنصور هل بقي من لذات الدنيا شيء لم تتله ؟ قال : بقيت أن أقعد على مصطبة وحولي أصحاب الحديث فيقول المستملي من ذكرت رحمك الله^(٢٦)



والخليفة المهدي أيضا كان محبا للأدب ومشجعا للتأليف وتشجيع العلماء على التأليف وسار الخليفة الهادي على نهج أبيه وعاشت بغداد عصرها الذهبي أيام الخليفة هارون الرشيد كان شغوفاً بالفنون والعلوم وكان قصره مركزاً لمختلف الثقافات جاء في كتاب الاداب السلطانية (أنه من أفاضل الخلفاء وفصحائهم وعلمائهم وكرمائهم ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والمغنين ما اجتمع على باب الرشيد وكان يصل كل واحد منهم أجزل صلة ويرفعه الى أعلى درجة وكان فاضلاً وشاعراً وراويَةً للأخبار والأثار والأشعار) (٢٧) الأسباب التي جعلت دولته تزدهر :أولها :شدة العلاقة التجارية والسياسية بين الرشيد وملوك أوروبا في ذلك العهد وتصور لنا مجالس الرشيد ، وثانيها :ما صورته كتب الآداب والشعر عن مجالس الرشيد صورتها في صورة رائعة وجذابة وهو صورة مع خادمه مسرور في أزقة بغداد ، وفي صورة أخرى يمتحن فيها الفتيان ، وهذه صورة ثالثة في المنادمة على الشراب والغناء ، ورابعة وكيف تزخر بالسلع وكيف ،ينصف فيها المظلوم ويحقق العدالة، كما يصور لنا أسواق بغداد تزخر بالسلع وكيف تتوارد عليها من كل مكان وكما كانت حركة التجارة نشيطة ، تصور لنا مجالس الرشيد وما فيها من بذخ وترف (٢٨).

ويقول شوقي ضيف عن مجلس المأمون ، وكان مجلس المأمون ساحة واسعة للجدال والمناظرة وكان مثقفاً ثقافة واسعة عميقة بالعلوم الدينية واللغوية والفلسفية وعلوم الأوائل فمضى يحول مجلسه في دار الخلافة ببغداد الى ندوات علمية تتناول كل فروع المعرفة فالخلفاء كانوا بدورهم يعقدون مجالس علمية وأدبية في بلاطهم يناظرون فيها الادباء والعلماء (٢٩) فضلاً عن استكمال له حركة الترجمة وكان وافر العلم غزير الاطلاع ملأ عصره بأنواع المعارف الانسانية وكان يرجع فضل الحضارة العباسية اليه .

وتوسعت المجالس بتوسع الحياة في هذا العصر فكانت مجالس المظالم ومجالس الخلفاء مع الشعراء والادباء والعلماء ومجالس العلم والمناظرة والمذاكرة والوعظ ومجالس الاملاء وغيرها لذا فإن الاهتمام بالمجالس وآدابها في هذا العصر أصبحت مادة للتأليف وكتابة فوصفت كثير من الكتب هذه المجالس مثل (البيان والتبيين) للجاحظ (ت ٢٥٥هـ) وكتاب ابن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ) صاحب كتاب (بهجة المجالس وأنس المجالس شحذ الذاهن



والهاجس) وكتاب (رسوم دار الخلافة) للصابي (ت٤٤٨هـ) ومن أهم مآلف ايضاً كتاب مجالس العلماء للزجاجي (ت) وكتاب (تاريخ الخلفاء) لابي بكر السيوطي (ت٩١١هـ) وقد تنوعت مادة مجالس الخلفاء فمنها مجالس في الدين والفقه والتي ضمت أفاضل العلماء وأخرى لعلوم اللغة كالنحو والشعر ومنها ما اختص في الفلسفة والطب وكل قضايا الثقافة التي تميز بها عصرهم فتمثل هذه المجالس صورة حضارية رائعة تدل على وعي علمي لذا كثرت هذه المجالس حتى أصبحت سمة العصر فلم تكن للخلفاء فقط بل لأولادهم قبل تولي الخلافة فحدثنا الزجاجي عن مجلس الكسائي علي بن حمزة بحضرة المهدي قبل أن يتولى الخلافة بأربعة أشهر^(٣٠)

وربما ترسم لنا هذه المجالس تنوعاً آخر يتراوح ما بين مجالس تسلية ومجالس مقابلات رسمية لاستقبال الوفود أو لإدارة شؤون الدولة والاستشارة ، ومجالس علمية وهي تتميز بالطابع المعرفي والثقافي سواء من الخليفة أو من حاشيته التي عادة ماتكون من خيرة العلماء والشعراء والادباء ، والذي يهمنا هاهنا المجالس العلمية التي عقدها الخلفاء أو أننا يمكن ان نصنفها بمجالس علم لما طرح فيها من مادة علمية من شعر وأدب ولغة وفقه ووعظ ورواية وما الى ذلك من علوم ، فمن الشعراء بشار وأبو نؤاس وأبو العتاهية ودعبل والعباس بن الأحنف ومن الفقهاء أبو يوسف والشافعي ومحمد بن الحسن ومن اللغويين أبو عبيدة والأصمعي والكسائي وغير هؤلاء والذين ممن لم نذكر هم أكثر ،

١. مجالس الوعظ :

ذكرت كلمة الوعظ في القرآن الكريم في مواعظ مختلفة تهدف الى الهداية في سبيل الصواب والارشاد فمنها ذكرها الرسل والانبياء وهي المهام التي أرسلهم الله سبحانه وتعالى الى الأمة ، قال تعالى : (واذكروا نعمة الله عليكم وما نزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به)(البقرة/ ٢٣) وكثرت مجالس الوعظ واشتهر وعاظ بمجالسهم وحلاقتهم يذكر الخطيب البغدادي مثلاً الواعظ محمد بن علي بن محمد بن يوسف أبو طاهر يعرف بابن العلاف بقول عنه(وله مجلس وعظ في جامع المهدي ثم اتخذ حلقة في جامع المنصور..)^(٣١)

احتل موضوع الوعظ مكان الصدارة ضمن اهتمام الشريعة الاسلامية لما له من دور في اشاعة الخير وردع الموبقات والمنكر والآفات التي من شأنها أن تقوض البناء الاجتماعي الصحيح للأمة وأدرك الخلفاء أهمية الوعظ ومن تصفحنا لسير الخلفاء العباسيين لمسنا أنهم



قد كرسوا جانباً كبيراً من اهتمامهم للالتقاء بالوعاظ والافادة من وعظهم لانهم وجدوا أنفسهم لا يستطيعون الاستغناء عن عناصر فاعلة لها دور ريادي إذا ما وُظف في اصلاح دولة ورعية تولوا أمرها فقربوا الوعاظ اليهم وأحاطوا بعين عنايتهم وتكفلوا برعايتهم والاحسان اليهم وتقديرهم^(٣٢)

من المجالس العلمية التي كثرت أخبارها في بطون كتب التاريخ والسير وهي مجالس الوعظ حيث كان الخلفاء يستدعون كبار العباد والزهاد ليعظوهم استحصالاً للذكرى ولا ينسى الخليفة وتغره الدنيا والأمثلة على تلك المجالس كثيرة منها مجلس المهدي مع صالح بن بشير المري ، وهو أحد الزهاد كان كثير النكاء وكان يعظ فيحضر مجلسه سفيان الثوري وغيره من العلماء جاء في كتاب البداية (يقول سفيان وقد استدعاه المهدي ليحضر عنده فجاء اليه راكبا على حمار فدنا من بساط الخليفة وهو راكب فأمر الخليفة ابنه ولي العهد من بعده موسى الهادي وهارون الرشيد أن يقوموا اليه لينزلاه عن دابته فابتدراه فأنزلاه فأقبل صالح على نفسه فقال لقد خبت وخسرت إن أنا داهنت ولم أصدع بالحق في هذا اليوم ... وخلص الى المهدي فوعظه موعظة بليغة حتى أبكاه منها قال له : أعلم أن رسول الله (ص) خصم من خالفه في أمته ومن كان خصمه كان الله خصمه فأعد لمخاصمة الله ومخاصمة رسوله حججا تضمن لك النجاة وغلا فاستسلم للهلكة وأعلم أن أبطأ الصرعى صريع الهوى بدعته وأعلم أن الله قاهر فوق عباده وأن أثبت الناس قدما آخذهم بكتاب الله وسنة رسوله وكلام طويل فبكى المهدي وأمر بكتابة ذلك الكلام في دواوينه^(٣٣) مما تقدم نجد أن هذه المجالس وأمثالها لم تكن الغاية منها العظة والاستذكار وإنما نستشف منها أن الخليفة يأخذ بها لتكون لائحة ومنهاجا للعمل يسير عليها وفي خطاها وهذا نتلمسه من العبارة الاخيرة التي قال فيها (وأمر بكتابة ذلك الكلام في دواوينه)

ومن هنا نجد أن الخلفاء كانوا يدنون مثل هذه الشخصيات لتكون مرجعا لهم يأخذون بأرائهم في كثير من القضايا التي تعرض لهم وهؤلاء يقدمون الاستشارة وأهم صفة تميزهم عدم المداهنة ولا يخافون الا الله وحده وبالتالي لا يخافون سطوة الخليفة مهما علا وفي كثير من الاحيان يطلب الخليفة الموعظة فيقول عظمي ، مثلما فعل الرشيد حين دعا بن السمات الى مجلسه ، فقال له عظمي فقال ، ياأمير المؤمنين اتق الله وحده لاشريك له واعلم أنك واقف غدا بين يدي الله ثم أنك مصروف الى أحد المنزلين لا ثالث لهما جنة أونار فبكى هارون حتى



اخطلت لحيته (فن المناظرة) بل كانوا يولونهم المناصب ، ففرج بن فضالة التنوخي الحمصي كان على بيت المال ببغداد في خلافة الرشيد ومن مناقبه أن المنصور دخل يوما الى قصر الذهب فقام الناس إلا فرج بن فضالة فقال له وقد غضب لم لم تقم ؟ قال : خفت أن يسألني الله عن ذلك ويسألك لم رضيت بذلك وقد كره رسول الله (صلى الله عليه وسلم) القيام للناس قال فبكى المنصور وقربه وقضى حوائجه^(٣٤)

فقرّب الخلفاء العباسيون العلماء حتى أنهم كانوا يولونهم مثلما ولى السفاح حسان بن ابي سنان التنوخي جاء في البداية وهو ممن أدرك الدولتين الاموية والعباسية وكان نصرانيا فأسلم وحسن اسلامه وكان يكتب بالعربية والفارسية والسريانية وكان بعرب الكتب بين يدي ربعة لما ولاه السفاح الانبار^(٣٥) ومن المجالس التي نلمس فيها التآدر والاستشهاد بالاحاديث النبوية مجلس الرشيد مع عبد الوارث بن سعيد البيروني وهو أحد الثقة قال الأصمعي كنت عند الرشيد يوما وعنده عافية وقد أحضره لأن قوما استعدوا عليه الى الرشيد فجعل الرشيد يوقفه على ما قيل عنه وهو يجيب عما يسأله وطال المجلس فعطس الخليفة فشمته الناس ولم يشمته عافية فقال له الرشيد لم لم تشمتني مع الناس ؟ فقال : لأنك لم تحمد الله واحتج بالحديث في ذلك فقال له الرشيد ارجع لعملك فوالله ماكنت لتفعل ما قيل عنك وأنت لم تسامحني في عطسة لم أحمد الله فيها ثم رده ردا جميلا الى ولايته^(٣٦)

أما في القضاء فكان أبو يوسف من القضاة الاجلاء الذين قرّبهم الخلفاء لعلمهم الغزير ، وكان أول من لقبه بقاضي القضاة الخليفة الهادي وكانت مجالسه مشهورة مع الرشيد حيث كان يستدعيه للمشورة أو أنه يكون عنده في مجلسه فيعرض عليه أمرا ألم به ويطلب منه الجواب ولم يكن أبو يوسف قاضيا فحسب وإنما كان عالما في كثير من العلوم ملما بها فقل في الكثير فمثلا يقول بشار الخفاف سمعت عليه ومن كلامه الذي ينبغي كتابته بماء الذهب قوله من طلب المال بالكيميا أفلس ومن تتبع غرائب الحديث كذب ومن طلب العلم بالكلام تزندق^(٣٧) هذا الكلام ينم عن خلفية علمية كبيرة لايشق لها غبار وإذا ما علمنا أن الخلفاء ينتقون جلساءهم بهذه الصفات وأكثر نعلم السبب الأول والأهم في تطور عجلة العلم في هذا العصر والذي يعود لمجالستهم العلماء والأخذ عنهم بل وتأديب أولادهم على ثلة علماء عصرهم وحجهم للعلم ورغبتهم في نشره



أما الخليفة المأمون فقد كان محبا للعلم والعلماء وهو نفسه كان على قدر كبير من العلمية وكثير من مجالسه العلمية تشهد له بذلك من مجالسه ما أخرجه ابن عيينة قال : جمع المأمون العلماء وجلس للناس ، فجاءت امرأة فقالت : يا أمير المؤمنين مات أخي وخلف ستمائة دينار ، أعطوني دينارا وقالوا : هذا نصيبك ، قال المأمون ثم كسر الفريضة ثم قال لها هذا نصيبك فقال له العلماء : كيف علمت يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذا الرجل خلف ابنتين قالت نعم ، قال فلهن الثلثان أربعمائة ، وخلف والده فلها السدس مائة وخلف زوجة فلها الثمن خمسة سبعون وبالله ألك اثنا عشر أخا ؟ قالت : نعم قال أصابهم ديناران ديناران وأصابك دينار^(٣٨).

ومن هنا لانستبعد أن تكون هذه المجالس على درجة عالية من العلم والثقافة ، حتى يصل الأمر الى أن يكون الخطاب فلسفيا تشيع فيه الفاظ علم الكلام والجدل ، ومما وصلنا في هذا الباب مثلا مجلس الرشيد مع الفضيل بن عياض حيث (قال له الرشيد يوما : ما أزهدك ، فقال أنت أزهد مني لأنني أنا زهدت في الدنيا التي هي أقل من جناح بعوضة وأنت زهدت في الآخرة التي لا قيمة لها فأنا زاهد في الفاني وانت زاهد في الباقي ومن زهد في ذرة أزهد ممن زهد في بعة)^(٣٩)

والمأمون كان كثيرا ما ينطق ويتفلسف وقد نلمس ذلك من أقواله التي نقلها لنا المؤرخون ، عن أبي العالية قال: سمعت المأمون يقول : ما أقبح اللجاجة بالسلطان ، وأقبح من ذلك الضجر من القضاة قبل التفهيم ، وأقبح منه سخافة الفقهاء بالدين ، وأقبح منه البخل بالأغنياء والمزاح بالشيوخ والكسل بالشباب والجبن بالمقاتل^(٤٠)

ومجالس الوعظ هذه نستطيع ان نلمس منها أمور عدة منها اولا وصول الموعظة غايتها وأثرها الاجتماعي في المجتمع وثانيا وصول الموعظة غايتها وأثرها في السلطة وهذه الاهمية تعني ان هذه المجالس لا تؤثر على عامة الناس فقط وانما استطاعت من توثيق العلاقة بين الوعاظ والحكام في تلك الفترة فقد حضر الخلفاء والوزراء كثير من هذه المجالس وطلب الخلفاء الموعظة للاتعاظ والمشورة^(٤١)

٢. مجالس العلوم الصرفية

تعد العلوم الصرفية من العلوم التي نمت وترعرعت في ظل الاسلام وتطورت ووصلت ذروتها من النضوج في العصر العباسي حتى أنها عدت حدثا من نوع خاص في مقاييس



التاريخ ذلك أنها خلافة العلم والمعرفة بمختلف ميادينها فهي نجحت في أن تحقق للعرب المسلمين المركز الرفيع والمتقدم بين الحضارات الانسانية^(٤٢) وكثير من مجالس الخلفاء كانت تشيع فيها اطرافا من الحديث إلا أننا نجد أن مجالس المأمون كانت أكثر عمقا وبدأت تأخذ الطابع العلمي ، قال الفضل اليزيدي : لم يكن في خلفاء بني العباس أكثر رواية للشعر من الواثق فقليل له كان أروى من المأمون ، فقال نعم ، كان المأمون قد مزج بعلم العرب علم الأوائل من النجوم والطب والمنطق^(٤٣) و كان لهذه المجالس الأثر الكبير في التعليم فكان عصره يمثل عصر توسع العلوم وظهور حركة الترجمة

والخلفاء بما عرف عنهم من الفطنة والنباهة والطموح في ولوج الآفاق المعرفية لم ينسوا أهمية الطب وضرورة وجود الأطباء لاشاعة مجتمع صحيح بعيد عن الأوبئة والامراض والأسقام وقد أولوا علماء هذا العلم ما يستحقونه من الاهتمام والرعاية واحتضنوا الاطباء وقربونهم^(٤٤)

واهتموا بالطب وعلم الأدوية وحفظ البدن وقد ألف في ذلك كثير من المؤلفات واشتهرت عوائل بالطب مثل آل بختيوشع على سبيل المثال لا الحصر ، وقد عرف الخلفاء بشغفهم وحبهم لتلك العلوم والمأمون من هؤلاء الخلفاء ومجالسه جذبت كثير من هؤلاء العلماء ومن تلك المجالس ما أخرجه محمد بن حفص الأنماطي قال : تغذينا مع المأمون في يوم عيد فوضع على مائدته أكثر من ثلاثمائة لون : قال فكلما وضع لون نظر المأمون إليه فقال: هذا نافع لكذا ضار لكذا ، فمن كان منكم صاحب بلغم فليجتنب هذا ، ومن كان منكم صاحب صفراء فليأكل من هذا ومن غلبت عليه السوداء فلا يعرض لهذا ومن قصد قلة الغذاء فليقتصر على هذا ، فقال له يحيى بن أكثم يا أمير المؤمنين إن خضنا في الطب كنت جالينوس في معرفته أو في النجوم كنت هرمس في حسابه أو في الفقه كنت علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في علمه أو ذكر السخاء كنت حاتم طيء في صفته أو صدق الحديث كنت أبا ذر في لهجته أو الكرم فأنت كعب بن امامة في فعالة أو الوفاء فأنت السموأل بن عاديا في وفائه فسر بهذا الكلام وقال : إن الانسان إنما فضل بعقله ولولا ذلك لم يكن لحم أطيب من لحم ولا دم أطيب من دم^(٤٥) وكانت محصلة اهتمام الخلفاء بالطب ورعايتهم لأهله أن برز واشتهر خلال هذا العصر الكثير من الاطباء الذين أداروا المستشفيات وشخصوا الامراض وأقدموا على تركيب الأدوية وعلموا أصول المعالجة وأقدموا



على رفد التراث الطبي بالكثير من المؤلفات القيمة^(٤٦) ولم يكن ذلك إلا برعاية الخلفاء وتقريبهم الاطباء منهم والاستعانة بهم سواء على صعيد الطب بوصفه علما قائما أم على صعيد الاعتناء بصحتهم الخاصة وعوائلهم ومن هؤلاء الخلفاء أيضا المطيع لله الذي قرب الكثير من الاطباء اليه والذين اختصوا بخدمته ومنهم ثابت الحراني الذي كان بارعا في الطب عالما بأصوله فكاكا للمشكلات من الكتب^(٤٧)

وفي باب الجدل وعلم الكلام نجد المأمون كان بارعا في ذلك ، فكان يجادل ويحاور فقد حاور مرة رجلا من الخوارج دخل على المأمون فقال له المأمون : ما حملك على خلافنا ؟ قال : آية في كتاب الله ، قال : وما هي قال قوله تعالى : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) (المائدة / ٤٣) قال ألك علم بأنها منزلة ؟ قال نعم : قال وما دليلك ؟ قال اجماع الأمة قال : فكما رضيت بإجماعهم في التزيل فارض بإجماعهم التأويل قال : صدقت^(٤٨) وأخرج عن عبد الله بن محمد الزهري قال : قال المأمون غلبة الحجة أحب إلي من غلبة القدرة لأن غلبة القدرة تزول بزوالها وغلبة الحجة لا يزيلها شيء^(٤٩)

٣- مجالس اللغة والشعر والأدب :

تعد اللغة العربية وما يتفرع عنها من أهم العلوم التي ينبغي أن يجيدها ويضبطها الخلفاء على وجه الخصوص لأنها لغة القرآن الكريم والرسول (ص) وهي لسان ناطق بحال العرب ولذا أظهر الخفاء اهتمامهم بها وسعوا لاشباع تطلعاتهم نحو اجادة قواعدها وعلومها والالتقاء بمشاهير علماء اللغة للأخذ عنهم والافادة من علمهم ومناقشتهم فيما يمت بصلة لها^(٥٠) وهنا لانستغرب من الخلفاء البحث عن أفاضل علماء اللغة في زمانهم للتعامل معهم واختيارهم لمهمة تأديب أولادهم وتعليمهم علم اللغة العربية وأن يكونوا جلساءهم ليستفادوا من علمهم فكان الكسائي ملازما للرشد ومؤدبا لأولاده ومنهم المأمون والمقتدي بأمر الله الذي أثر العالم أبا محمد البغدادي والمستظهر الذي أعجب بطريقة قراءة مقرئه ابن الجراح وكان للخليفة المقتدي لأمر الله الدور الريادي في مجالسة علماء اللغة ومذاكرتهم ومن أبرز جلسائه أبو منصور الجواليقي الذي قرأ عليه الخليفة المقتدي كثيرا من الكتب^(٥١) ، وقد يصل ذلك الاهتمام بأن جعل الخليفة المقتدي لأمر الله الجواليقي من ساكني دار الخلافة كما سمح له بعقد حلقاته العلمية التي يدرس فيها كل مايتعلق باللغة في جامع القصر بعد صلاة الجمعة ليتفرغ لتلامذته الذين نهلوا العلم على يديه^(٥٢)



وولع الخلفاء بالشعر ومجالسة الشعراء لانه يعد من أبرز الفنون الادبية التي استهوت العرب قاطبة وعلى مر العصور ، وقد شهدت الخلافة العباسية وعلى مدى عمرها نهضة شعرية تولى رعايتها الخلفاء أنفسهم الذين شجعوا الشعراء على نظم القصائد المعبرة وقد حملت مجالسهم في ثناياها المتعة والطرافة وعمق الصلة والرابطة المتينة بينهم وبين الخلفاء ومن هنا كانت مجالس الشعر من المجالس المحببة الى نفوس الخلفاء وهذا من المؤكد لان أمة العرب أمة الشعر وقد خلدت كل مآثرها ومفاخرها وسطرته شعرا وأدبا فكانوا يتبارون بالشعر وتطير اليه نفوسهم يتذوقونه ويجدون فيه حلاوة وطلاوة وكتب التاريخ تزرع بمجالس الخلفاء الشعرية حتى أننا نجدهم لا يقولون شاعرية من ممتدحيهم من الشعراء ،

وقد يجزلون اليهم العطاء تثمينا لما تجود قرائهم من شعر تطير اليه النفوس إضافة لاستحسانهم الشعر وإنما ذلك لايعود لامتداحهم وحسب وإنما لانهم يعلمون قيمة الشعر عند الناس فهو ديوان العرب ومن المجالس :

مرة استدعى المهدي الشعراء الى مجلسه وكان فيهم أبو العتاهية وبشار بن برد الأعمى فسمع صوت أبي العتاهية فقال لجليسه أثم هاهنا أبو العتاهية قال نعم ، فانطلق يذكر قصيدته فيها التي أولها :

ألا ما لسيدتي مالها	أدلت فأجمل إدلالها
فقال بشار لجليسه ما رأيت أجسر من هذا حتى انتهى أبو العتاهية الى قوله	
أنته الخلافة منقادة	إليه تجر أديالها
فلم تك تصلح إلا له	ولم يك يصلح إلا لها
ولو رامها أحد غيره	لزلزلت الأرض زلزالها
ولو لم تطعه بنات القلوب	لما قبل الله أعمالها

فقال بشار لجليسه انظروا أطار الخليفة عن فراشه أم لا ؟ قال فوالله ما خرج أحد من الشعراء يومئذ بجائزة غيره^(٥٣)

وكثيرا ما كان يدور في مثل هذه المجالس حديثا في نقد الشعر وفي البلاغة وكلها تمثل النواة الأولى لتطور علم البلاغة والمجاز والتي كانت تمهيدا لظهور نظرية النظم وتبلورها على يد عبد القاهر الجرجاني فيما بعد ، ومن أمثلة تلك المجالس ما دار بين الرشيد



يوما مع العباس بن الأحنف حينما سأله أي بيت قالت العرب أرق ؟ فقال قول جميل في بثينة
الذي فيه

ألا ليتني أعمى أصم تقودني
بثينة لا يخفى علي كلامها
فقال له الرشيد : أرق منه قولك في مثل هذا
طاف الهوى في عباد الله كلهم
حتى إذا مر بي من بينهم وقفا
فقال له العباس : فقولك يا أمير المؤمنين أرق من هذا كله

أما يكفيك أنك تملكيني
وأنك لو قطعت يدي ورجلي
لقلت في الهوى أحسنت زيدي
فضحك الرشيد وأعجبه ذلك^(٥٤) من هذا المجلس نجد أن الخلفاء كانوا يتجاذبون
ويتطارحون الرؤى الشعرية وينقدون الشعر ويحكمون عليه وقد يصل الأمر الى اهداء ما في
أيديهم ثناء لبيت شعر فهو أغلى من كنوز والجواهر من ذلك ما قال الرشيد مرة للمفضل
الضبي : ما أحسن ما قيل في الذئب ولك هذا الخاتم وشراؤه الف وستمائة دينار ، فأشدد :
ينام بإحدى مقلتيه ويتقي
فقال ماقلت هذا إلا لتسلبنا الخاتم ثم ألقاه اليه^(٥٥)

ومن مجالس المأمون في الشعر والادب ، وقد اشتهر بحفظه الغزير من الشعر ما
أخرج عن عمارة بن عقيل^(٥٦) قال : قال لي ابن أبي حفصة الشاعر : أعلمت أن المأمون
لا يبصر الشعر ؟ فقلت : من ذا يكون أفرس منه ؟ والله إنا لننشد أول البيت فيسبق إلى آخره
، من غير أن يكون سمعه ، قال إني أنشدته بيتا أجدت فيه فلم أره تحرك له وهو هذا :

أضحى إمام الهدى المأمون مشغلا
بالدين والناس في الدنيا مشاغل

فقلت له : مازدت على أن جعلته عجوزا في محرابها في يدها سبحة فمن يقوم بأمر
الدنيا إذا كان مشغولا عنها ؟ وهو المطوق لها ، ألا قلت كما قال عمك في الوليد:
فلا هو في الدنيا يضيع نصيبه
ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله
من هذا المجلس نستشف أمورا منها أن المأمون كان متذوقا للشعر عارفا لما يجب
أن يوصف به الملوك والخلفاء كذلك كان حافظا للشعر حتى أنه كان يسبق الى اكمال
الابيات الشعرية لكثرة محفوظه وقوة حافظته



كما اهتم المأمون باللغة وكان يحاور في دقائق اللغة ويتخير الجواب الصحيح بحسه اللغوي وفصاحته التي تأدب عليها ، ففي مجلس طويل ضم النضر بن شميل وعلي بن أظمار ، قال المأمون حدثني هشيم بن بشير ... قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سداد من عوز) بالكسر وكان المأمون متكئا فاستوى جالسا وقال السداد (بالفتح) لحن يا نضر قلت نعم ههنا وإنما لحن هشيم وكان لحنانا ، فقال ما الفرق بينهما قلت السداد بالفتح القصد في السبيل والسداد بالكسر البلغة وكل ما سددت به شيئا فهو سداد قال أفتعرف العرب ذلك قلت : نعم هذا العرجي يقول :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريةه وسداد ثغر

فأطرق المأمون مليا ثم قال : قبح الله من لا أدب له ، ثم استمر المأمون في إدارة المجلس ويطلب منه إنشاده الشعر يقول : أنشدني يا نضر أخلب بيت للعرب فأنشده ثم قال أنشدني أنصف بيت قالته العرب فأنشده ثم قال أنشدني أقنع بيت للعرب فأنشده ثم قال : أحسنت يا نضر ، وأخذ القرطاس ، فكتب شيئا لا أدري ما هو ثم قال : كيف تقول افعل من التراب ؟ قلت أترب ، قال : من الطين ؟ قلت طن قال : فالكتاب ماذا ؟ قلت مترب مطين قال هذه أحسن من الأولى فكتب ي بخمسين ألف درهم ثم أمر الخادم أن يوصلني الى الفضل بن سهل فمضيت معه فلما قرأ الكتاب قال: يانضر لحننت أمير المؤمنين قلت كلا ولكن هشيم لحنانة فتبع أمير المؤمنين لفظه فأمر لي من عنده بثلاثين ألفا فخرجت الى منزلي بثمانين ألفا^(٥٧) .

نستنتج من هذا المجلس أمورا منها: إن مدار من حوار كان في صميم اللغة فأسئلة المأمون تتم عن أن السائل متخصص عارف باللغة واشتقاقاتها فهو يطلب التفريق بين الفتح والكسر الذي على أساسه يكون التفريق بالدلالة والمعنى ثم هو يطلب الاشتقاق على صيغة أفعل التي هي صيغة تفضيل وعن جواز الاشتقاق عليها من بعض الالفاظ وأي لفظة أصح في الاشتقاق ، والذي وصل إلينا وهو مهم جدا أن المأمون ثبت كل ذلك من سؤال وجواب بكتاب وهذا نستنتجه من قول الفضل حين (قرأ الكتاب قال يانضر لحننت أمير المؤمنين قلت كلا ولكن هشيم لحنانة) هذا القول يدل على أن كل مدار في المجلس مكتوب وإلا كيف عرف الفضل ذلك وهذه إشارة مهمة تؤكد أن هذه المجالس لم تكن للتسلية والتنادم وإنما كان



لها دور مهم في الدفع نحو التأدب والذي هو يعني التعليم ووجوب التعلم وهذا نجده في قول المأمون (قبح الله من لأدب له) فالأدب هاهنا يقصد به التعليم والمعلم كان يقال له المؤدب .

٤. مجالس المناظرات:

في اللغة ، النون والطاء والراء أصل صحيح ترجع فروعه الى معنى واحد وهو تأمل الشيء وهذا نظير هذا من هذا القياس أي أنه إذا نظر اليه والى نظيره كان سواء^(٥٨) وابن منظور في لسان العرب^(٥٩) يقول : (المناظرة أن تناظر أخاك في أمر أو نظرتما في الأمر وتناظره ونأظره من المناظرة ، والنظير المثل وقيل المثل في كل شيء ويقال ناظرت فلانا أي صرت له في المخاطبة وإذا قلت نظرت في الامر احتمل أن يكون تفكير فيه والتدبر بالقلب)، والنظر محركه الفكر في الشيء تقديره وتقيسه وإذا قلت نظر في الامر احتمل ان يكون تفكرا وتدبرا بالقلب^(٦٠)

أما في الاصطلاح فقد أطلق العرب هذا المصطلح على أحد الوان الجدل في الفكر أو في العقائد إذن المناظرة محاوره فكرية بين طرفين يختصمان ويتباريان في الخصومة في حضور طرف ثالث محايد وكل طرف يلقي الحجة والادلة التي تؤكد مايزعمه اليه ، وغالبا ماتعالج المناظرة موضوعا محددا ولكل مناظر وجهة نظر يختلف بها وبظهور الحق أوالصواب وجب الاعتراف أمام مناظره^(٦١)

وهذا اللون له جذوره في العصر الجاهلي إلا أنه نما وبرز في العصور الاسلامية وقد ساعد القرآن الكريم على نموه فالقرآن الكريم كثيرا ماحث الانبياء على مناظرة الكفار والمشركين لاقامة الحجة عليهم بالتي هي أحسن^(٦٢) وكثيرة هي الآيات التي ورد فيها لفظ الحوار قال تعالى: (قال له وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم سواك رجلا)(الكهف/ ٣٧) وكذلك لفظ الجدل الذي ورد في قوله تعالى (وقد سمع الله قول التي تجادلك ..)(المجادلة/) والمناظرات شهدت في العصر العباسي تطورا وشيوعا ، وكانت فنا أدبيا شجع عليه الخلفاء العباسيون بل كانت كثير من المناظرات تعقد مجالسها في حضرة الخليفة نفسه وأغدقوا على العلماء والادباء والشعراء كثيرا من الاموال والهدايا الثمينة وأول من سن ذلك وجعله تقليدا هو الخليفة المهدي واحتذاه في ذلك الرشيد وأتبعه في ذلك المأمون وكانت هاته المناظرات بين العلماء والادباء تعقد بالمجالس ، وقد كثرت المناظرات في عصر المأمون والذي كان هو نفسه يعقدها اهتماما منه وحبه للعلم وانشغال مجالسه بالعلم ومن تلك



المجالس ماجرى من مناظرات بين أهل الملل والنحل وبين أئمة أهل البيت ومنها المجلس الذي عقد بأمر المأمون حيث أمر الفضل بن سهل أن يجمع له أصحاب المقالات مثل الجاثليق ورأس جالوت ورؤساء الصابئين والهريذ الأكبر وأصحاب زردشت ونسطاس الرومي والمتكلمين ليسمع كلامه وكلامهم فجمعهم الفضل ثم أخبر المأمون فقال : أدخلهم علي فرحب بهم المأمون وقال لهم : إني جمعتكم لخير وأحببت أن تتأظروا ابن عمي هذا المدني القادم علي فإذا كان بكرة فاغدوا علي ولا يتخلف منكم أحد فقالوا السمع والطاعة ، وقال الحسن بن محمد النوفلي فبينما نحن في حديث لنا عند أبي الحسن (عليه السلام) فقال ياسيدي ان أمير المؤمنين يقرئك السلام ويقول فذاك أخوك إنه اجتمع الي أصحاب المقالات وأهل الأديان والمتكلمون من جميع الملل فأريك في البكور إلينا إن أحببت كلامهم وإن كرهت ذلك فلا تتجشم وإن أحببت أن نصير اليك خف ذلك علينا فقال أبو الحسن (عليه السلام) أبلغه السلام وقل له قد علمت ما أردت وأنا صائر اليك بكرة ان شاء الله^(٦٣) والمناظرة طويلة لا يسعنا الى ذكرها ولكن الذي يهمنا هاهنا أن مصطلح المناظرة محدد وواضح وأن هذه المجالس كانت تعقد برغبة من الخليفة نفسه ، وقد لانبالغ إذا ما قلنا أن من أكثر القضايا التي كانت محركا لكثير ، من المناظرات في ذلك العصر قضية خلق القرآن والتي وصل الصراع الكلامي والجدلي ذروته في عصر المأمون حيث أمر بامتحان العلماء فيها ، يقول السيوطي^(٦٤) ففي سنة ثمان عشرة بعد المئتين امتحن الناس بالقول بخلق القرآن وقد وجه كتابا بذلك لنائبه على بغداد يفصل في هذه المسألة ويقول (... ويعرفوه كنه معرفته ويفرقوا بينه وبين خلقه وذلك أنهم ساووا بين الله وبين ما أنزل من القرآن فأطبقوا على أنه قديم لم يخلقه الله ويخترعه وقد قال الله تعالى (إنا جعلناه قرآنا عربيا) (الزخرف / ٣) وما جعله الله فقد خلقه كما قال (وجعل الظلمات والنور) (الانعام/ ٦) فأخبر أنه قصص لأمر أحدثه بعدها وقال (أحكمت آياته ثم فصلت) (هود / ١) والله محكم كتابه ومفصله فهو خالقه ومبتدعه) ثم يقول (فاجمع بحضرتك من القضاة فاقرأ عليهم كتابنا وامتحانهم فيما يقولون) ثم كتب المأمون كتابا آخر وأمر بإحضار من اشتهر فاحضر جماعة منهم أحمد بن حنبل وخلق كثير من العلماء وقد أجابوا كلهم الا احمد بن حنبل ومحمد بن نوح والقواريري فأمر بتقيدهم ، (ولما عهد المأمون الى أخيه المعتصم بالخلافة أوصاه أن يحمل الناس على القول بخلق القرآن واستمر الامام احمد بن حنبل محبوسا الى أن بويع المعتصم فاحضر الامام أحمد بن حنبل (رض) الى بغداد وعقد له



مجلسا للمناظرة ثلاثة أيام ولم يزل معهم في جدال الى اليوم الرابع فأمر بضربه فضرب الى الى (أن أعمى عليه) ^(٦٥) ولم تقتصر المناظرات على المسائل الفقه والفلسفية وعلم الكلام والجدل بل شملت علوم النحو واللغة والادب ، فكان كل أديب يجيد في شعره لا يلبث أن يستدعى الى دار الخلافة أو دار الولاية أو دار الوزراء وكان الخلفاء هم أيضا يناظرون الادباء والشعراء ^(٦٦)

وقصة الأصمعي المشهورة مع الخليفة العباسي المنصور الذي كان يتحدى الشعراء بقوة حفظه للقصيدة من أول مرة وغلّامه يحفظها من المرة الثانية وله جارية تحفظها من المرة الثالثة فسمع الأصمعي بذلك فعد قصيدة فيها كثير من الالفاظ الصعبة والمعاني الغريبة ولبس لباس الاعراب ودخل على الخليفة وألقى القصيدة (صوت صغير البلبل) وبعد انتهائه لم يتذكر منها شيئا ، ثم حضر غلامه ولم يتمكن من حفظها ثم الجارية وقد صعب عليها الحفظ فقال الخليفة سوف اعطيك وزن لوح الكتابة ذهبا فعلى ماذا كتبتها ؟ فقال له الأصمعي : لقد ورثت عمود رخام من أبي فنقشت القصيدة عليه والعمود علي جملي في الخارج يحمله عشرة جنود فقال الوزير : يا امير المؤمنين ما أظنه الا الأصمعي فقال الامير أتفعل هكذا بأمر المؤمنين قد قطعت رزق الشعراء بفعلك هذا ، فقال الامير أعد المال فقال الأصمعي بشرط قال الامير فما هو قال : أن تعطي الشعراء على قولهم ومنقولهم قال الامير : لك هذا* ، ورغم الاراء التي تذهب الى عدم صحة هذه القصة ولهذا المجلس الذي دار بين المنصور والأصمعي ألا أننا نود الوصول الى أن مجالس كانت ليست للسمع وحسب وإنما كانوا يدخلون مضمار العلم والادب بل يتحدثون الادباء والشعراء وحتى العلماء لانهم ايضا كذلك.

وفي المناظرات ازدهر النثر ويرجع ذلك لغلبة العقل والحجاج العقلي في سبيل الدفاع عن العقيدة ومن أهم المناظرات التي شغلت العلماء المسلمين نظرية خلق القرآن ، إذ امتاز العصر العباسي الاول بالصراع الفكري الذي حدث في أوساط الفرق الاسلامية المختلفة وقد كانت كل قضية فكرية تثير عددا من المعارك الكلامية التي يتخذ لها ميدانا من الكتب والرسائل والمناظرات بين العلماء ، وكان للمناظرات دورا كبيرا في ارتقاء العلوم والآداب التي أذكت روح المنافسة والحرص لدى العلماء ^(٦٧)

ويعود الفضل في تطور هذا الفن وازدهاره الى المتكلمين وخاصة المعتزلة حيث اتخذوا الجدل والمناظرة وسيلة اعتمدوا عليها في مباحثهم وقد اشتهرت كثير من المناظرات

حتى صارت مضرب الامثال وسأخذ واحدة من أشهر المناظرات في اللغة والنحو والتي سميت فيما بعد بالمسألة الزنبورية والتي جرت وعقد مجلسها في قصر هارون الرشيد ومقادها ، قال أبو الحسن سعيد بن مسعدة الاخفش : إن أبا بشر عمرو بن عثمان بن قنبر سيبويه لما قدم على أبي علي يحيى بن خالد ابن برمك سأله عن خبره والحال التي ورد لها فقال: جئت لتجمع بيني وبين الكسائي فقال له : لا تفعل فإنه شيخ مدينة السلام وقارئها ومؤدب ولد أمير المؤمنين وكل من في المصر له ومعه فأبى إلا أن يجمع بينهما فعرف الرشيد خبره فأمر بالجمع بينهما فوعده بيوم فلما كان ذلك اليوم غدا الى دار الرشيد فوجد الفراء والاحمر وهشام بن معاوية ومحمد بن سعدان قد سبقوه ، فسأله الاحمر عن مائة مسألة فأجابه عنها فما أجابه بجواب إلا قال أخطأت يا بصري فوجم لذلك سيبويه ووافى الكسائي ومعه خلق من العرب فلما جلس قال له : يا بصري كيف تقول : خرجت فإذا زيد قائم فقال: خرجت فإذا زيد قائم ، فقال له : أيجوز فإذا زيد قائما فقال : لا ، فقال الكسائي هذه العرب على باب أمير المؤمنين وقد حضرت فتسأل فقال سلها فقال لهم الكسائي : كيف تقولون : (قد كنت أحسب أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا الزنبور إياها بعينها) فقالت طائفة فإذا هو إياها بعينها ، فقال هذا خلاف ما تقول يا بصري فقال أما عرب بلدنا فلا تعرف الا هو هي فخطأته الجماعة وحصر فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف درهم وصرفه (٦٨) وكانت هذه المناظرة سببا لوفاة سيبويه التي على إثرها وافته المنية كمدا ، ويبدو لنا بعض الامور من هذه الحادثة منها : إن المتناظرين يمنحون مكافآت اضافة الى أن المتناظرين على دراية بأداب المجالس وما ينبغي أن يراعى في المجلس (٦٩) ، كما أن المناظرة لها استعدادات وتهيئة من تحديد موعد وحضور طائفة من العلماء وحتى الاعراب الذين كان تؤخذ منهم وتستقرأ اللغة بما عرف عنهم من طبع وفطرة لغوية يحتجون بهم ، كما يظهر لنا دعم الخليفة لطرف ما يسنده الخليفة ويتبناه فالكسائي هو مؤدب الخليفة واولاده وهويمثل العالم المقرب عنده وهذا واضح من قول يحيى لسيبويه ناصحا له بعدم المضي في المناظرة (وكل من في المصر له ومعه) وأن كثيرا من هذه المجالس كانت تمثل معارك كلامية يغلب عليها الجدل والغلبة لمن يملك هذه الملكة أضف الى ملكة الفكر والعلم و كما نلمح مما تقدم أن العلماء الافذاذ كانوا يمثلون حاشية مجالس الخلافة وبطانتهم والمقربين لهم فمثلا الفراء وهو (أجل أصحاب الكسائي هو والاحمر قيل لولاه لما كانت عربية لانه هذبها وضبطها وقال ثمامة بن اشرس المعتزلي ذاكرت الفراء



فوجدته في النحو نسج وحده وفي اللغة بحرا وفي الفقه عارفا باختلاف القوم وفي الطب خبيراً وبأيام العرب وأشعارها حاذقاً وقد صنف الفراء للمأمون كتاب الحدود في النحو وكتاب المعاني واجتمع لإملائه خلق كثير منهم ثمانون قاضياً وعمل كتاباً على جميع القرآن في نحو ألف ورقة لم يعمل مثله وكل تصنيفه حفظاً لم يأخذ بيده نسخة...^(٧٠) نفهم مما سبق أن العلماء قد يؤلفون الكتاب بطلب من الخليفة نفسه وأمثال ذلك كثير .

الخاتمة:

مما تقدم في البحث عن مجالس الخلفاء ودورها في التعليم وجدنا أن هذه المجالس كانت النواة والدافع لإنشاء المدارس فيما بعد في العصر العباسي الثاني ، ذلك أن حبهم للعلم والعلماء هو الذي أنتج فكرة بناء مدرسة كما أنتج فكرة تبني الدولة واطلاعها بدور التعليم ونشره وقد كانت مجالس الخلفاء متنوعة شملت كل أنواع العلم من وعظ وقضاء ومجالس أدب وشعر ومجالس الفلسفة وعلم الكلام ناهيك عن مجالس العلوم الأخرى كالطب والفلك وغيرها ، وقد اتسمت لغة المجالس هذه بأنها لغة راقية رفيعة ممزوجة بروح الترافة والجمال الذي هو سمت ذلك العصر ، وأن هذه المجالس كانت حلبة يتبارى فيها العلماء والادباء لإظهار علمهم وامكاناتهم فبرزت روح المنافسة فيما بينهم وقد خدم ذلك العلم والتعلم سواء كان ذلك عن قصد أم غير قصد فذهب العلم في ذلك العصر مذاهب شتى وحقق قفزات نوعية وطفرة وراثية فغزى العلم العربي العالم كله وبالتالي اتكأ عليه الغرب فيما بعد ونهض بثورته العلمية الحديثة .

الاحالات

١. ينظر أبو حامد الغزالي ، احياء علوم الدين ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان : ١١/١-١٢
٢. ينظر م.ن : ١٩
٣. السيوطي ، جلال الدين ، تاريخ الخلفاء ، تح: الشيخ قاسم الشماخي الرفاعي والشيخ محمد الرفاعي ، دار القلم ، بيروت : ٣٢٧
٤. م.ن : ٣٤٨٩
٥. ينظر السيوطي 5
٦. ينظر ابن فارس ، مقاييس اللغة ، ١/٤٧٣ : ٤٧٤
٧. ابن منظور ، اللسان ، دار صادر ، بيروت : ٤١/٣ : ٤٢
٨. معجم مفردات القرآن ، تح: داوودي ، نشر دار القلم الدار الشامية ، ٢٠٠٩ : ٦٦٥

٩. سومية بورقيبة ، ونرجس قميني ، فن المناظرات في مجالس الخلفاء العباسيين ، العصر العباسي الأول ١٣٢ هـ - ٢٣٢ هـ ، جامعة العربي بن مهيدي ، كلية الاداب واللغات ، وزارة التعليم العالي ، الجمهورية الجزائرية الشعبية : ٤٣

. خماس ، كمال رشيد ، المجالس الثقافية في مدينة بغداد : ١ : 10

١١. ينظر أبو داود سلمان بن الأشعث ، سنن أبي داود ، تح: د. بدر الدين جتین آر ، ط٢ ، دار أبو الحسن بن الحاج ، صحيح مسلم ، تح: محمد فؤاد عبد الباقي ، ط٢ ، دار العودة: سحنون : ٥ / ١٦٢ ، ينظر مسلم ، أبو الحسن بن الحاج ، صحيح مسلم ، تح: محمد فؤاد عبد الباقي ، ط٢ ، دار العودة:

١٢. ينظر محمد الريشهري ، ميزان الحكمة ، دار الحديث ، ايران : ١ / ٣٨٣

١٣. ينظر مسلم ، أبو الحسن بن الحاج ، صحيح مسلم ، تح: محمد فؤاد عبد الباقي ، ط٢ ، دار العودة: ١٧١٤ / ٢ رقم الحديث: ٢١٧٧

١٤. صحيح مسلم : ٣ / ٢١٨ رقم ٧٨١٠

١٥. صحيح مسلم : ٢ / ١٧١٤

١٦. ينظر زيد الدين ابي الفرج عبد الرحمن البغدادي ، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تح: احمد فتحي عبد الرحمن حجازي: ٥ / ٥٤١

١٧. سنن ابي داود : ٥ / ١٧٧ رقم الحديث: ٤٨٤٨

١٨. سنن ابي داود: ٤٨٤٥

١٩. ابو عبد الله ، محمد بن يزيد بن ماجه ، سنن ابن ماجه ، تح: محمد فؤاد عبد الباقي ، دار العودة ، دار سحنون : ٢ / ١٢٤٥

٢٠. المجالس الثقافية: ٢

٢١. م. ن: ١

٢٢. ينظر جريدة المؤتمر العدد: ٢٧١٥ ، يوم ٢ / ٤ / ٢٠١٣ ، المجالس العلمية للخلفاء في بغداد لبنات اولى لحضارة دار السلام ومجدها التليد : ٤

٢٣. م. ن

٢٤. فن المناظرات : ٤٩

٢٥. ابن عساكر ، مجلسان من مجالس الحافظ ابن عساكر في مسجد دمشق ، تح: محمد مطيع الحافظ ، ط١ ، ١٩٧٩ ، دار الفكر ، دمشق ، مقدمة المحقق : ١٦

٢٦. ينظر ابن طباطبا محمد بن علي (ت ٧٠٩ هـ) الفخري في الاداب السلطانية، ط دار صادر: ٤٣

٢٧. المجالس العلمية للخلفاء في بغداد: ٤

٢٨. ينظر سومية ، المناظرات : ٣٦



٢٩. شوقي ضيف ، العصر العباسي الاول ، دار المعارف ، ط١٦ ، القاهرة : ٤٥
٣٠. ابن طيفور ، أبو الفضل احمد بن ابي طاهر ، كتاب بغداد ، دار الجنان ، بيروت : ٤٥
٣١. الخطيب البغدادي ، احمد بن علي ، تاريخ بغداد ، بيروت ، ١٠٣/٣ - ١٠٤
٣٢. ينظر العلواني ، جهاد عبد الحسين ، اثر الوعظ والوعاظ : ١٠٣ ، رعاية الخلفاء : ٥٤٩
٣٣. ينظر ابن الاثير ، البداية والنهاية ، : ١٠ / ١٧٠ - ١٧١
٣٤. م.ن : ١٧١ / ١٠
٣٥. م.ن : ٧٩ / ١٠
٣٦. م.ن : ١٧٦ / ١٠
٣٧. م.ن : ١٨١ / ١٠
٣٨. ينظر تاريخ الخلفاء : ٣٥٨
٣٩. ينظر ابن الاثير ، البداية والنهاية ، : ١٠ / ١٩٩
٤٠. تاريخ الخلفاء : ٣٦٤
٤١. ينظر الاء نافع ، ملامح عن مجالس الوعظ ودورها في المجتمع ببغداد في العصر العباسي ، مركز احياء التراث ، جامعة بغداد (بحث)
٤٢. ينظر السامرائي مختصر تاريخ : ٣٢٦ / ١
٤٣. تاريخ الخلفاء : ٣٨٧
٤٤. ينظر المشهداني ، انيسة محمد جاسم ، رعاية الخلفاء العباسيين للعلم والعلماء ، دار الكتب العلمية ، بغداد ، ٢٠١٣ : ٢ / ٦٢٤
٤٥. تاريخ الخلفاء : ٣٥٩
٤٦. رعاية الخلفاء : ٦٢٤ / ٢
٤٧. تاريخ الحكماء : ١٠٩ ، رعاية : ٦٢٤
٤٨. تاريخ الخلفاء : ٣٢٦
٤٩. م.ن : ٣٦٣
٥٠. رعاية الخلفاء : ٥٨٤
٥١. ينظر سير اعلام النبلاء : ١٩ / ١٧٢ ، رعاية الخلفاء : ٥٨٧
٥٢. انباه الرواة : ٣ / ٣٣٥ ، ابن الجوزي ، ابو الفرج عبد الرحمن بن علي ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، حيدر آباد الدكن ، دائرة المعارف العثمانية ، ١٩٣٨ : ١٠ / ١١٨
٥٣. البداية : ٢٦٦ / ١٠
٥٤. م.ن : ٢١٩ / ١٠
٥٥. م.ن : ٢١٩ / ١٠

٥٦. تاريخ الخلفاء: ٣٥٩
٥٧. م.ن: ٣٥٩ - ٣٦١
٥٨. ينظر المقاييس مادة (نظر)
٥٩. ينظر لسان العرب مادة (نظر)
٦٠. ينظر تاج العروس مادة (نظر)
٦١. ينظر الطيب زايد ، والمهدي مأمون ، المناظرات الادبية في العصر العباسي ، بحث في مجلة بخت الرضا العلمية ، العدد ١٢ ، سبتمبر ٢٠١٤ ، كلية الاداب : ٣-٤
٦٢. عبد الرحمن حسن حنكة ، ضوابط المعرفة والاستدلال والمناظرة ، ط٤ ، دار القلم ، دمشق: ٣٦٢
٦٣. الصدوق محمد بن علي ، عيون اخبار الرضا (ع) ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ١٩٨٤ : ٢ / ١٣٩ ، وينظر عباس القمي ، منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل : ٢ : ٣٨٧
٦٤. تاريخ الخلفاء: ٣٥١
٦٥. ينظر القرماني ، ابو العباس احمد بن يوسف بن احمد الدمشقي ، اخبار الدول وآثار الاول في التاريخ ، عالم الكتب بيروت، مكتبة المتنبي القاهرة : ١٥٥-١٥٦
٦٦. فن المناظرات: ٣٩
- * القصة المشهورة هذه وردت في كتابين الاول: اعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس لمحمد دياب الاتليدي(ت ١١٠٠هـ) والثاني: مجاني الادب من حقائق العرب للويس شيخو (ت ١٣٤٦هـ)
٦٧. شوقي ضيف ، العصر العباسي الاول ، ط١٦ ، دار المعارف : ٤٠١
٦٨. الزبيدي ، ابو بكر محمد بن الحسن ، طبقات النحويين واللغويين ، تح: محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، مصر : ٦٩-٧٠
٦٩. ينظر احمد امين مصطفى ، المناظرات في الادب العربي : ٤٢
٧٠. ابو الفلاح عبد الحي بن العماد شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، الكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت : ١٩ / ٢